العِزّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي اللَّه عنهما عن رسول اللَّه ﷺ قال:

(قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: العِزّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي بِشَيءٍ مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ)[1].

الحق سبحانه له مطلق الكبرياء والعز، فالعز إزاره، والكبرياء رداؤه، وليس لبشر أو مخلوق أن ينازعه هذا، وإلا أصبح مستحقاً لعذاب اللَّه؛ لأنه نازع اللَّه ما يتصف به سبحانه من صفات الجلال التي يتمجد اللَّه على خَلْقه.

وقد أدرك عباد اللَّه المتقون هذا، فسلَّموا للَّه العز والكبرياء له وحده، لا يشاركه فيه أحد، أولئك هم عباد اللَّه الذين ذكرهم اللَّه في سورة الفرقان واصفاً إياهم بقوله سبحانه:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فهذه هي الصفة الأولى من صفات عباد اللَّه، فالمِشْيَةُ التي يمشيها الإنسان هي تعبير عن الشخصية، وعما يستكِنّ فيها من مشاعر، فالنفس السَّوية المطمئنة الجادة المقتصدة تظهر صفاتها هذه على مِشْية صاحبها، فيمشي مِشْية سَوِيَّة، فيها وقار وسكينة، وفيها جِدٌّ وعزيمة وقوة.

فعباد الرحمن يمشون على الأرض مِشْية سهلة هيِّنة، ليس فيها تكلُّف، ولا تصنُّع، وليس فيها خُيلاء ولا كِبْر، ولا إمالة خدٍّ عن عباد اللَّه، وليس فيها ترهُّل أو تماوت. فهم يمشون برفق ولِينٍ، وسكينة وتواضع ووقار، بعيداً عن الاختيال والتكبُّر والغطرسة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد ـ حديث ٥٥٢) بهذا اللفظ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٣) بلفظ: «العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني نازعته».

فالرحمن الذين هم عباده ينهى عن التكبُّر على الناس، فيقول:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وتَصْعير الخدِّ هو أنْ يلوي الإنسانُ عنقه عن الناس تكبُّراً واختيالاً، والمرح هو الفرح ببطر، فيفرح ظناً منه أن هذه ذاتية من عنده، وينسى مَنْ أنعم عليه بهذه النعم، فيأخذ نعمه ويعصيه بها، فاللَّه نهانا أنْ نفرح الفرحَ الذي يُنسينا ذكر اللَّه وشكره على نعمه، فالفرح في ذاته ليس ممنوعاً، ولكن فَرَح البطر هو المذموم المكروه.

لذلك يقول سبحانه:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٧، ٣٨].

والإنسان لا يمشي في الأرض مَرَحاً وخُيلاء إلا حينما يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده، فتأخذه الخيلاء بما يبلغه من: ثراء، أو سلطان، أو قوة، أو جمال، فلو تذكَّر أن ما به من نعمة فمن اللَّه، وأنه ضعيف أمام حَوْل اللَّه وقوته لَخفَّف من خُيلائه، ومشى على الأرض هَوْناً، لا تَيْهاً، ولا مرحاً.

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً للفرح، والخيلاء والتكبُّر على الناس والمرح المذموم في قصة قارون، إذ قال في حقه:

﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

فقد آتاه اللَّه من الأموال والكنوز الشيء الكثير، حتى أن مفاتيح خزائنه بلغ وزنُها حدّاً أنْ كانت العُصْبة والجماعة من الرجال الأشداء يشقُّ عليهم حَمْلُها، (لتنوأ[1] بالعصبة أولي القوة) ولكنه تكبّرَ، ونسب هذا

(١) ناء الرجل بالحمل: نهض به متثاقلاً في جهد ومشقة. قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] أي: تثقل عليهم وتجهدهم، وهذا كناية عن كثرة كنوز قارون. [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠]

المال والغِنَى إلى نفسه ناسياً اللَّه عز وجل، فردَّ على نصيحة قومه، بقوله:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.. [القصص: ٧٨].

إنها قَوْلة المغرور المتكبِّر المطموس البصيرة الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويُعميه الثراء؛ لذلك خرج يستعرض أمام الناس زينته وأمواله وعبيده في صورة يتجلى فيها البَغْي والتطاول والإعراض عن النصح والتعالي عن العِظَة، والإصرار على الفساد، والاعتزاز بالمال.

يقول تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩].

فها هو قارون يخرج على قومه مُخْتالاً مُتكبِّراً مَزْهواً بنفسه وبزينته فتطير لها قلوبُ فريقٍ من قومه، ويتمنوْن لأنفسهم مثل ما أُوتِي قارون، وذلك لضعف نفوسهم، فوقفوا أمام فتنة الحياة الدنيا وقفةَ المأخوذ المبهور المتهافت المتهاوي.

فكانت عاقبة هذا المغرور المختال الفَرِح بنفسه الجاحد لنعمة اللَّه أنْ خسف اللَّهُ به وبداره الأرضَ، فابتلعتْه الأرض هو وكنوزه وأمواله وقصره.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

لذلك كان من أُولى صفات عباد اللَّه أنهم:

﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فأوَّل شيء يحقق توازن المجتمع أننا جميعاً عند اللَّه سواء، وكلُّنا عبيده، وليس مِنَّا مَنْ بينه وبين اللَّه قرابة أو نسب، فالجميع عند اللَّه كأسنان المشْط، لا فَرْقَ بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

إنْ تفاوتَتْ أقدارنا في الحياة فهو تفاوت ظاهري شكلي لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة، فتقول مثلاً: هذا غني وهذا فقير.

وأغلب الناس يهتمون بهذه الناحية من الاختلاف، ويَدَعُون غيرها من النواحي الأخرى، وهذا قصور في الفكر، بل يجب النظر إلى الجوانب

الأخرى في حياة الإنسان، وإلى الزوايا المختلفة في النفس الإنسانية.

وما دام المجتمع الإيماني على هذه الصورة فلا يصح أنْ يرفع أحدٌ رأسه في المجتمع على الآخرين تكبُّراً واختيالاً، ليعطي لنفسه قداسة أو منزلة فوق منزلة الآخرين؛ لذلك قال تعالى:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.. [الإسراء: ٢٧].

أي: فخراً واختيالاً، أو بَطَراً وتعالياً؛ لأن الذي يفخر بشيء ويختال به ويظن أنه أفضل من غيره، يجب أنْ يضمن لنفسه بقاء ما افتخر به، بمعنى أنْ يكون ذاتياً فيه، لا يذهب عنه ولا يفارقه، لكن من حكمة اللَّه سبحانه وتعالى أنْ جعل كلَّ ما يمكن أنْ يفتخر به الإنسان هِبةً له، وليست أصيلة فيه.

فكل أمور الإنسان، بدايةً من إيجاده من عدم هي هبة يمكن أنْ تُستردَّ في يوم من الأيام، ويجب أنْ يتفكَّر الإنسان في أنَّ حاله يتغير، فلا المالُ يبقى ولا الصحةُ أو القوة تدوم، فكيف الحال إذا تكبرْتَ بمالك، ثم رآك الناس فقيراً أو تعاليتَ بقوتك، ثم رآك الناس عليلاً.

إذن: فالتواضع والأدب أَلْيَق بك، والتكبُّر والتعالي لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى، فكيف ينازع العبدُ الحقَّ سبحانه صفةً من صفاته؟ وقد نهانا الحق عن ذلك؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى.

ومَنْ أحب أنْ يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه، فلينظر إلى الصفوف المتراصَّة في الصلاة عندما يُنادَى بها، فترى الجميع سواسية: الغني والفقير، الرئيس والمرءوس.

الكلُّ راكع أو ساجد، الكلُّ خاضع للَّه، متذلل له، الكلُّ عبد للَّه بعد أنْ خلعوا أقدارهم عندما خلعوا نعالهم، ففي ساحة الرحمن يتساوى الجميع، وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح في مناسك الحج.

فالرئيس أو الكبير لا يأنف، ولا يرى غضاضة في أن يراه مرءوسه وهو حليق الرأس، ولا يستر بدنه إلا قطعتا ملابس، قد تغيّرَ وجهه، خاضعاً للَّه مُتذلّلاً له، مُتضرِّعاً للَّه؛ لأن الكلَّ يعلم أن الخضوع والتذلل للَّه هو عَيْن العزة والشرف والكرامة.

لذلك يوبِّخ رب العزة ذلك المتكبر المختال في مشيته، قائلاً له:

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

فعلى أي شيء تمشي هكذا؟! فأنت بهذا التكبُّر والتعالي لن تخرق الأرض، بل ستظل الأرض صُلْبة تتحداك رغم أنك مخلوق منها، وأنها تُداس بالأقدام، وكذلك مهما ارتفعتْ قامتُك وشمختْ أنفك، فلن تبلغَ ارتفاعَ وطول الجبال.

ونلاحظ أن اللَّه ذكر الأرض والجبال وكلاهما جمادات وهما أقلُّ منزلةً ومكانةً من الإنسان، فالجماد الذي هو أدنى الأجناس له مكانة ومنزلة، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله وفي ركنها الحجر الأسعد الذي سنَّ لنا رسول اللَّه تقبيله وهو حجر وعليه يتزاحم الناس ويتشرفون بتقبيله والتمسُّح به.

فالعبودية للَّه تعالى تسري في الكون كله؛ لذلك لا يحقُّ لك أيها الإنسان أنْ تسير بمرح أو خُيلاء أو تَعَالٍ.

تواضعْ أيها الإنسان، وتخلّق بما أمر اللَّه به، وكُنْ واحداً من عباد الرحمن هؤلاء، الذين هم أولياء اللَّه حقاً، الذين يمشون على الأرض هَوْناً، أي: بِوقَار ولِينٍ وسكون وطمأنينة، سِرْ دون افتعال عظمة، أو إعجاب بالنفس، أو تكبُّر واختيال، حينئذ ستشعر أنك تسير في انسجام مع الكون كله من حولك: بهوائه، وأرضه، وسمائه، وأشجاره، ومياهه، كلها تسير في عبودية للَّه عز وجل.

فبأيِّ شيء يختال الإنسان: بقوته، بصحته، بِغناه، بجماله، بأولاده، بسلطانه، بِسَطْوتهِ؟

كل هذا موهوب من اللَّه، وهبه اللَّه له؛ ليسير به في الناس بالحق والعدل والخير، فالمتكبِّر المختال إنسان مضروب على قلبه الحجاب، لأنه لم يلتفت إلى ربه، فهو يظن أنه أفضل من كل الناس، ولكنه لو استحضر كبرياء ربه وعظمته لاستحى أنْ يكون مُتكبراً.

وليس معنى ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أنهم يمشون مُتماوتين

مُنكّسي الرؤوس، مُتداعي الأركان، متهاوي البنيان، كما يفهم بعض الناس ممَّنْ يريدون إظهار التقوى والصلاح.

فهذا رسول اللَّه ﷺ كان إذا مشى تكفّأ تكفّياً، وكان أسرعَ الناس مِشْية، وأحسنها وأسْكَنها.

قال أبو هريرة: ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسول اللَّه ﷺ، كأن الشمسَ تجري في وجهه، وما رأيتُ أحداً أسرعَ في مِشْيته من رسول اللَّه ﷺ، كأنما الأرض تُطْوى له، وإنَّا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مُكترث (١).

وقال زوج ابنته علي بن أبي طالب وابن عمه: كان رسول اللَّه ﷺ إذا مشى تكفّأ تكفّياً، كأنما ينحطُّ في صَبَب (٢).

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩].

والقصد هو: الإقبال على الحدث، إقبالاً لا نقيضَ فيه لطرفين، يعني: توسُّطاً واعتدالاً، هذا في المشي.

﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ ﴾.. [لقمان: ١٩]، أي: اخفضه، وحَسْبك من الأداء ما بلغ الأذن.

لكن، لماذا جمع السياقُ القرآني بين المشي والصوت؟ قالوا: لأن للإنسان مطلوباتٍ في الحياة، هذه المطلوبات يصل إليها، إما بالمشي ـ فأنا لا أمشي إلى مكان إلا إذا كان لي فيه مصلحةٌ وغرض ـ وإما بالصوت، فإذا لم أستطع المشي إليه ناديْتهُ بصوتي.

إذن: إما أنْ تذهب إلى مطلوبك، أو أنْ تستدعيَه إليك. والقصد أي:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٥٠، ٣٨٠)، وكذا الترمذي في سننه (٣٦٤٨) كلاهما من طريق ابن لهيعة بسنده إلى أبي هريرة، قال الترمذي: حديث غريب.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٩٦، ١٢٧، ١٣٤)، وأخرجه عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل في زوائده على مسند أبيه (١/ ١١٦، ١١٧، ١٥١)، وكذا الترمذي في سننه (٣٦٣٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وفي بعض ألفاظ الحديث «من صخر». ومعنى «في صبب» أي: في موضع منحدر. قال ابن عباس: أراد به أنه قويّ البدن، فإذا مشى فكأنه يمشي على صدر قدميه من القوة.

التوسُّط في الأمر مطلوب في كل شيء؛ لأن كل شيء له طرفان لا بُدَّ أن يكون في أحدهما مبالغة، وفي الآخر تقصير؛ لذلك قالوا: كِلَا طرفي قَصْد الأمور ذميم.

واعلم أن هذه الأرض التي تختال عليها وتتكبَّر قد سخرها اللَّه لك لتستطيع أنْ تمشي عليها وتتنقل فيها من جهة لأخرى، يقول الحق سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ فِرَٰشًا ﴾ يُوحي بأنه أعدَّ الأرضَ إعداداً مريحاً للبشر، كما تفرش على الأرض شيئاً، تجلس عليه أو تنام عليه، فيكون فراشاً يُريحك، ونحن نتوارث الأرضَ جيلاً بعد جيل، وهي تصلح لحياتنا جميعاً، ومنذ أنْ خُلِقَتْ الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشاً للإنسان.

فالحق سبحانه قد أعدَّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل، فكل جيل رُفِّه في العيش بسبب تقدُّم الحضارة كشف اللَّه من العلم ما يُطوع له الأرض ويجعلها فراشاً.

ويقول سبحانه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨]، أي: هيَّأناها تهييئاً يريح الساكنين فيها، مثل المهد الذي نُعِده للطفل؛ لأن الطفل لا يدرك أيّ شيء، فلا بُدَّ أنْ نُمهِّد له فراشه حتى يكون مريحاً له، فلا يُنغِّص شيء عليه نومته.

فمعنى المهاد، أي: نُمهِّد له الحياةَ التي ليس فيها مُكدِّرات لحركته، كذلك الأرض، كلّ الناس بالنسبة لها كالأطفال، فمهَّد اللَّه لهم الأرض، ولذلك تجدها مريحة في النوم، وصالحة له في أيِّ مكان، حتى في الجبل تجده يُسوِّي الرمل وينام عليه، ولهذا يقولون: فراش المتعَب وَطِيءٌ، فتجد المتعَب ينام حتى على الحصى، وينام مِلْء جفونه.

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال في آية أخرى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ١٠].

والمهد هو فراش الطفل، ولا بُدَّ أنْ يكون مريحاً؛ لأن الطفل إذا وجد

في الفراش شيئاً يُتعبه، فإنه لا يملك الإمكانات التي تجعله يريحه؛ ولذلك تمهد الأم لطفلها مكانَ نومه لينامَ نوماً مريحاً، ولكن الذي يُمهِّد الأرض لكل خَلْقه هو اللَّه سبحانه وتعالى، يجعلها فراشاً لعباده، مثلما نفعل نحن مع أطفالنا.

وفوق هذا، جعل لنا سبحانه في هذه الأرض سُبلاً وطرقاً؛ لأن المصالح تقتضي أنْ ينتقل الناسُ من مكان إقامتهم إلى أماكن أخرى فيها مصالحهم، فيحملون البضائعَ والسلعَ من بلاد إلى أخرى والعكس، فاللَّه تعالى جعل لنا هذه السبل لعلنا نهتدي في السير إلى أغراضنا وأهدافنا.

أو: أن الناس حين يرَوْنَ هذه السُّبل التي خلقها اللَّه ويسَّرها لهم، وما بَثَّ في الأرض من خير ونِعَمٍ، قد يحِنُّون ويعتبرون بعظمة هذا الخالق، فيؤمنون ويهتدون.

ويقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

فالحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان، تعطيه كل ما يحتاج إليه، فهي مُسخَّرة له، يسعى ويضرب فيها، ويأكل من رزق اللَّه الناتج منها، ونحن لا نملك السماوات، ولا نملك الأرض، إنما نملك ما فيها من خيرات ومنافع مما ملّكنا اللَّه له، فهو الغنيُّ سبحانه، المالك لكلِّ شيء، وما ملَّكنا إلا من باطن مُلْكه.

فما في السماء والأرض مِلْك للَّه، لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه، فإنْ سأل سائل: فلماذا لا يجعلها اللَّه لنا ويُملّكنا إياها؟ نقول: ربك يريد أنْ يُطمئنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً، وستظل مِلْكاً للَّه، وأنت تنتفع بها، وهل تأمن إنْ ملّكها اللَّه لغيره أنْ يتغيّرَ لك ويحرمك منها؟ فأمنُكَ في أنْ يظل المُلْك للَّه وحده؛ لأنه ربك ومتوليك، ولن يتغير لك، ولن يتنكر في منفعتك.

فالأرض تؤدي مهمتها التي خلقها اللَّه لها، وجعلها مُسخَّرة مُذلَّلة للإنسان ليسعى فيها، ويضرب في الأرض بالحرْث والبذْر والانتقال، لتعطيه من خيراتها، فعلامَ يتكبّر الإنسان ويختال على الأرض؟

وأيضاً، تلك الجبال التي يشمخُ الإنسان بأنفه، لعله يبلغها طُولاً، ونسي قوْلَ اللَّه تعالى:

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

هذه الجبال يقول الحق سبحانه عنها: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فهذا الجبل الضخم لو نزل عليه القرآنُ الكريم لَصَار خاشعاً هامداً، وتصدّع وتفتَّتت ذراته من خشية اللَّه تعالى، لماذا؟ لأنه ما دام سينزل عليه القرآن الكريم، سيصبح مُكلَّفاً، وتكليفه لن يتركه هكذا، بل كل ذرة تُسبِّح لعملها، فلابد أنْ يتفتت، ولكنه ليس مُكلَّفاً.

فالذي يحدث أنه يندكُّ ويهبط؛ لأنه غير مُكلَّف؛ لأنه هو والسماء والأرض أخذوا هذه المهمة منذ البداية، لقوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فهذه السماوات والأرض والجبال التي نختال عليها ونتكبَّر رفضتْ أن تكون مُخيَّرة، وطلبت أنْ تكون مُسيرة لأمر اللَّه، يُسخرها كما يشاء ويريد، فكانت الأرضُ والجبال أعلمَ من الإنسان الظّلوم الجَهول، فرفضت تحمُّل الأمانة؛ لأنها خافتْ أنْ لا تفي بها عند الأداء.

إن الكون كله أشفق على نفسه من تحمُّل الأمانة.

وهذا يعني أن الأمانة سوف تكون عُرْضة للتصرُّف والاختيار، ولا كائنَ في الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء.

لقد أعلنت الكائناتُ قولها، فأبيْنَ تحمُّل الأمانة، وكأنها قالت: إنَّا يا ربنا نريد أنْ نكون مُسخَّرين مقهورين لا اختيارَ لنا؛ ولذلك نجد الكون كله يؤدي مهمته كما أرادها اللَّه، ما عدا الإنسان، أي: أنه الذي قَبل بما له من عقل وتفكير أنْ يتحمل أمانة الاختيار، وبلسان حاله، أو بلسان مقاله قال: إنني قادر على تحمُّل الأمانة؛ لأني أستطيع الاختيار بين البدائل.

وهنا نُذكِّر الإنسانَ: إنك قد تكون قوياً لحظة التحمّل، ولكن ماذا عن حالك وقت الأداء؟

لذلك قال الله عن الإنسان: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

لقد ظلم الإنسانُ نفسَه، حيث حمل الأمانة ولم يَفِ بها، فلذلك فهو ظلوم، وهو جَهُول لأنه قدَّر وقت التحمُّل، ولم يُقدر وقت الأداء، ضَمِنها، ثم خالف ما عاهد نفسه على أدائه.

فإذا كان الإنسان ظَلُوماً لنفسه، جَهُولاً بحقيقة الأمر، فلماذا يتكبَّر ويختال ويتبختر فَرِحاً بنفسه، يمشي في الأرض مَرحاً، وهو في غَدٍ في باطنها مقبور.

أيْنَ أهْلُ الفَضْلِ؟

قال رسول اللَّه ﷺ:

(إذَا جَمَعَ اللَّهُ الخَلائِقَ يَوْمَ القِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أيْنَ أهْلُ الفَضْلِ؟
فَيَقُومُ نَاسٌ، وَهُمْ يَسِيرٌ، فَيَنْطَلِقُونَ سِرَاعاً إلَى الجنّةِ
فَتَتَلَقّاهُمُ الْمَلائِكَةُ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: إنّا نَرَاكُمْ سِرَاعاً إلى الجَنّةِ؟
فَيَقُولُونَ: نَحْنُ أهْلُ الفَضْلِ. فَيَقُولُونَ: مَا كَانَ فَضْلُكُمْ؟
فَيَقُولُونَ: كُنّا إذَا ظُلِمْنَا صَبَرْنَا، وَإذَا أُسِيءَ إلَيْنَا عَفَوْنَا، وَإذَا جُهِلَ عَلَيْنَا حَلَمْنَا.
فَيُقَالُ: ادْخُلُوا الجَنّةَ، فَنِعْمَ أجْرُ العَامِلِينَ)[1]

هذا الحديث ينقلنا إلى صفة أخرى من صفات المؤمنين، وهي صفة تُبرز لنا كيف يتعاملون مع الناس، خاصة الجاهلين منهم والحمقى والسُّفهاء. فالعبد من عباد اللَّه لا يدخل في: جدال، ولا هراء، ولا مخاصمة مع هذا الصِّنف من الناس، وهم كثير.

يقول الحق: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فهم لا يلتفتون إلى حماقة الحَمْقَى، أو سَفَه السُّفهاء، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السُّفهاء والحمقى في جدال أو عِرَاك، ويترفَّعون عن المهاترة مع المهاترين الطائشين، لا عن ضعف، ولكن عن ترفُّع، ولا عن عجز إنما عن استعلاء، وعن صيانةٍ للوقت والجهد أنْ يُنفقا فيما لا يليقُ بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهمّ وأكرم وأرفع.

والجاهلون في الآية هنا هم السفهاء والحمقى الذين لا يَزِنُون الأمور،

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (حديث رقم: ٧٨٦٢) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وقال: «هذا متن غريب، وفي إسناده ضعف والله أعلم».

ولا يعقلون كلامهم، فكلُّ مَنْ لا يضع كل كلمة يقولها في وضعها الصحيح الذي يَصْلُح به أمر الناس فهو جاهل.

وهؤلاء يجب الإعراض عنهم، والردُّ عليهم بالحسنى كما هنا ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أو عدم الردِّ عليهم، كما في قوله تعالى:

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فالحقُّ سبحانه يرشدنا إلى مَكْرُمة من مكارم الأخلاق في تعاملنا مع مَنْ حولنا من الناس، بأنْ نُعرِض عن الجاهلين الذين يعتقدون قضية مخالفة للواقع ويتعصَّبون لها، هذا الجاهل لا يجب أنْ نماريه أو نجادله؛ لأن الجدل معه لن يؤدي إلى نتيجة مفيدة.

فلا تكُنْ مثل الجاهل السفيه، وتردُّ عليه بمثل قوله، فجواب ما يُكْره السكوتُ، وإلا فلو سفهْتَ عليه كما سَفِه عليك فقد صِرْتَ مثله تماماً، فلا تنسى أن هناك فَرْقاً بينك وبينه يجب أنْ تحافظ عليه، حتى لا تخرج من حيّز «عباد الرحمن».

أما إذا اشتدتْ سفاهته عليك، وطغى وبَغَى، فيُباح لك أنْ تردَّ العدوان بمثله؛ لأنه قد يظن أن السكوت ضَعْف، فعليك أنْ تُبيِّن له أن هذا ليس ضَعْفاً منك، ولكنه كَرَم خُلُق.

ومعنى ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾، أي: سلام المُتَارَكة، فإذا جَهل عليك إنسان وسَبَّك بلسانه حلمتَ عليه، وقلتَ له: أنا لن أردَّ عليك. وتركته وانصرفتَ.

وسلام المتاركة غير سلام التحية الذي تلقيه على مَنْ يقابلك حين تبدؤه بالسلام، وقد يتحول سلام المتاركة أحياناً إلى سلام التحية للانصراف، مثلما قال سيدنا إبراهيم لعمه آزر بعد أنْ دَعَاهُ إلى الإسلام، فأبَى ولم يقتنع، فانصرف عنه، وقال له:

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

فلا جدالَ ولا أذى، ولا ردَّ للتهديد والوعيد، سأدعو اللَّه أنْ يغفرَ لك، فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولِّي الشيطان، بل يرحمك فيرزقك

الهدى، فلن أقابلك بمثل ما قلتَ، ولن أُغلِظَ لك، أو ينالك مِنّي أذىً، أو أقول: أفٍّ.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي: إذا سَفِه عليهم الجُهَّال بالقول السيِّئ لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يَعْفُون ويَصْفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول اللَّه ﷺ[١] لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حِلْماً.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقد سبَّ رجلٌ رجلاً في حضرة رسول اللَّه ﷺ، فجعل المَسْبُوب يقول: عليك السلام، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أما إن مَلَكاً بينكما يذبُّ[٢] عنك كلما شتمك هذا»[٣].

والحِلْم والصبر عن أذى الجاهلين دلالة على كمال العقل، وانكسار قوة الغضب، وخضوعها للعقل، وقد حَثَّ رسول اللَّه ﷺ على خُلق الحلم، فقال ﷺ: «ابتغوا الرِّفْعة عند اللَّه. قالوا: وما هي يا رسول اللَّه؟ قال: تَصِل مَنْ قطعك، وتعطي مَنْ حرمك، وتَحْلُم عَمَّنْ جهل عليك»[٤].

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو ذوي قرابته، فقال: يا رسول اللَّه، إن لي قرابة أَصِلُهم ويقطعوني، وأُحْسِنُ إليهم ويُسيئون إليَّ، ويَجْهلون عليَّ، وأحلم عنهم، فقال له ﷺ: «إنْ كان كما تقول فكأنما

---

(١) مما يُروى في هذا عن النبي ﷺ أن أنس بن مالك قال: إن النبي ﷺ أدركه أعرابي فأخذ بردائه، فجبذه جبذة شديدة، فنظرتُ إلى عنق رسول اللَّه (وقد أثرت فيه حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال اللَّه الذي عندك، فالتفتَ إليه الرسول، فضحك وأمر له بعطاء. حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/ ٥٨٠٩ ـ الفتح) ومسلم في صحيحه (ج ٢ ـ الزكاة/ ١٢٨).

(٢) الذبُّ: الدفع والمنع. فلان يذب عن حريمه: يدفع عنهم. [اللسان ـ مادة: ذبب].

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٤٤٥) من حديث النعمان بن مقرن رضي اللَّه عنه.

(٤) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٩٦) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما. وأورده أبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٧٧) من حديث أبي هريرة، وعزاه الحافظ العراقي للحاكم والبيهقي.

تسفُّهم المَلَّ[١] ، ولا يزال له معك من اللَّه ظهير ما دُمْتَ على ذلك»[٢] .

وقد قال رسول اللَّه محمد ﷺ لأصحابه يوماً: « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ قالوا: وما أبو ضمضم؟ قال: رجل ممَّنْ كان قبلكم، كان إذا أصبح يقول: اللَّهم إنِّي تصدَّقتُ اليوم بعِرْضي على مَنْ ظلمني»[٣] .

وانظر إلى هذا الصحابي الذي وفد على النبي ﷺ، فأناخ راحلته، وربطها حتى لا تذهب منه، ثم طرح عنه ثوبين كانا عليه، ثم أخرج من عَيْبته[٤] ثوبين حسنين فلبسهما، كل هذا والنبي ﷺ يرى ما يصنع.

ثم أقبل الصحابي يمشي إلى رسول اللَّه ﷺ، فقال عليه السلام: إنَّ فيك يا أشج[٥] خُلُقيْنِ يحبهما اللَّه ورسوله. قال: ما هما بأبي أنت وأمي، يا رسول اللَّه؟ قال: الحِلْم والأناة. ولأنه حليم، ولأنه مُتَأنٍّ، سأل النبيَّ ﷺ: خُلَّتانِ تَخلَّقتُهما، أم خُلُقَان جُبِلْتُ عليهما؟ فقال ﷺ: « بل خُلُقان جَبلَكَ اللَّه عليهما» . فقال: الحمد للَّه الذي جَبَلَني على خُلُقين يحبهما اللَّه ورسوله»[٦] .

ومع أن للطباع الأصيلة في النفس دَخْلاً في أنصبة الناس من الحِدَّة والهدوء، والعَجلة والأناة، والكَدَر والنقاء، إلا أن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء بنفسه وبين أَنَاته مع الآخرين، وتجاوزه عن خطئهم.

---

(١) الملَّ: الرماد الحار الذي يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج، أراد إنما تجعل الملة لهم سُفوفاً يستفونه، أي أن عطاءك إياهم حرام عليهم ونار في بطونهم. [لسان العرب ـ مادة: ملل] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٠٠، ٤١٢، ٤٨٤)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة. من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٣) أورده الغزالي في الإحياء (٣/ ١٥٤)، قال الحافظ العراقي في تخريجه: « أخرجه البزار، وابن السني في اليوم والليلة، والعقيلي في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف، وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلاً عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة. قلت: وإنما هو رجل ممن كان قبلنا، كما عند البزار والعقيلي» .

(٤) العيبة: وعاء من جلد، يكون فيه المتاع. والعيبة: ما يُجعل فيها الثياب. [اللسان ـ مادة: عيب] .

(٥) هو المنذر بن عائذ، وقد كان في وفد عبد القيس الذين وفدوا على رسول اللَّه (من البحرين، سماه رسول اللَّه (أشج) لأنه كان بوجهه شجٌّ.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٠٦)، وأبو داود في سننه (٥٢٢٥) .

فالرجل العظيم حقّاً كلما حلّق في آفاق الكمال اتسع صدره، وامتدّ حِلْمه، وعذر الناسَ من أنفسهم، والتمس المبررات لأغلاطهم، فإذا عَدَا عليه غِرٌّ يريد تجريحه نظر إليه من قمته، كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعبثون في الطريق، وقد يرمونه بالأحجار.

ويعطينا الحق سبحانه نماذج لعباد الرحمن أعرضت عن الجاهلين الذين تسافهوا عليهم، فعباد الرحمن ليسوا مجرد مُثُل نظرية لم تتحقق في الحياة، بل هي نماذج عاشتْ بين الناس، قديماً وحديثاً، وستعيش في قادم الأيام.

فانظر إلى قوم نوح عليه السلام، الذين سبُّوا نوحاً واتهموه بالضلال، يقول تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٠].

فاتهموه بأنه ضَالٌّ مُخرِّف، قد فسد عقله، إذ كيف يأمرهم بعبادة إله واحد بل إنه يتجاوز هذا، فيحذرهم وينذرهم عذابَ يوم عظيم، وهذا شيء لم يقبلوه؛ لأن فطرتهم كانت قد فسدتْ بعبادتهم: وَدًّا[1]، وسُوَاع، ويَغُوث ويعوق، ونَسْراً، فكانوا سفهاء مع نوح، واحتقروه واحتقروا دعوته.

ما أعظمَ حِلم نوح عليه السلام وصبره على حماقات قومه عليه عندما كان يصنع السفينة في أرض ليس بها ماء وذلك بأمر اللَّه عزَّ وجلَّ يقول تعالى:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

---

(١) هذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون اللَّه. قال محمد بن قيس: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوَّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم. وقال ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سُواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، أما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لِحِمْيَر لآل ذي كلاع. [تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٦].

فقد أخذ نوح عليه السلام يصنع السفينة تحت أمر اللَّه وَوَحْيه، وجعل قومه يمرُّون عليه فيهزأون به، ويسخرون منه، ويقولون له: يا نوح، قد كنتَ بالأمس نبياً، واليوم قد صِرْتَ نجاراً! ويجتمعون عليه وهم يضحكون، وهو جادّ عليه السلام في عمله، فكان يجيبهم بقوله:

﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩].

فقد استعمل المشركون معه صنوف الاستهزاء والبلاء؛ ليصدُّوه عن دعوته، فلم يجدوا منه إلا كلَّ صبر وثبات، اتهموه بأنواع الاتهامات، وافتروا عليه أنواع الافتراءات، فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وصَبْراً وجهاداً، فكان من أُولي العزم الصابرين.

فقد كان جهاد نوح عليه السلام وصبره على إيذاء قومه بما لا طاقةَ لأحد على تحمُّله، ولا قدرةَ له عليه، بل دعاهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، فقد أقام بينهم: داعياً، مُذكّراً، ناصحاً، سالكاً جميع الطرق الحكيمة لإنقاذهم من الضلال، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان، فلم يفلح معهم أبداً.

وكانت دعوته لهم ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وجهاراً، و مع هذا لم تَلِنْ قلوبهم، بل قابلوا الإحسانَ بالإساءة، واللطفَ بالشدة، ومالوا عليه بالضرب والأذى وهو لا يفتأ يقول: اللَّهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون.

وقد مدح الحق سبحانه أولئك الذين ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

فهذه صفة من صفات المؤمنين وهي الإعراض عن اللغو من الكلام والفعل والتصرُّف والسلوك، ومن صفاتهم عدم ابتغاء الجاهلين الحمقى السُّفهاء الذين يبحثون عن زلَّاتِ الناس وأخطائهم، للسخرية منهم والاستهزاء بهم.

واللغو فارغ الحديث الذي لا طائلَ تحته، ولا حاصل وراءه، وهو يقتل الوقت دون أنْ يضيف إلى القلب أو العقل زاداً جديداً، ولا معرفة مفيدة، وهو البذيء من القَوْل الذي يفسد الحِسَّ واللسان.

والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو، ولا تستمع إليه، ولا تلتفت إليه، لأنها مشغولة بتكاليف الإيمان، مرتفعة بأشواقه، متطهرة بنوره.

والمؤمنون إذا سمعوا تسافه الجاهلين عليهم لا يهتاجون ولا يغتاظون، ولا يردُّون عليهم بمثله، بل يتركون الجدال معهم، وإنْ كانوا مُحقِّين، ولكن يتركونهم في موادعة وسلام، في أدب جَمّ، وترفُّع راقٍ، دون تكبُّر، وفي دعاء بالخير، ورغبة في الهداية.

فلا مشاركةَ للجهال، ولا مخاصمةَ، ولا ضيقَ بهم، بل سماحة ووُدّ وترفُّع وحُب للخير.

ولاتصاف المؤمنين بهذه الصفة ثمرة يجدون مردودها في حياتهم السلوكية يقول تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فليس للمؤمن أنْ يردَّ السيئةَ بالسيئةِ، بل عليه أن يردَّ السيئةَ بالحسنةِ، فالصبر على جهل الجاهلين، وحماقة الحَمْقى، وسَفَهِ السفهاء، والتسامح معهم في غير ضَعْف، والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشرّ بالشرّ، يردُّ النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة، فتنقلب الخصومةُ ولاءً، والشدةُ لِيناً والهياج إلى وداعة، والغضب إلى سكينة، والتبجّح حياءً.

فبكلمة طيبة، ونبرة هادئة، وبسمة حانية في وجه خَصْمك الغاضب، يتحول إلى وليّ نصير حميم، غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد، تحتاج إلى صبر جميل، وهي درجة عالية. يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

أي: لا يُلقَّى هذه المنزلة، أي منزلة مقابلة مَنْ أساء إليه بالإحسان، إلا مَنْ صبر، وكان ذا حظٍّ عظيم أي نصيب وافر العطاء، لأنه كبت نفسه فيقول له الحق سبحانه: أنت كبتَّ نفسك التي بين جنبيك من أجلي، فأنا سأجعل نهاية هذا الأمر خيراً لهذه النفس، فلا يُلقَّى الدَّفْع بالتي هي أحسن إلا الذين صبروا على الأذى.

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً حياً على تسافه الجاهلين والحمقى والسفهاء على المؤمنين الملتزمين بمنهج اللَّه، فيقول تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [المطففين: ١٩ ـ ٣٣].

فالمنحرف حين يرى المستقيم يعرف أنه كمنحرف لم ينجح في أنْ يضبط حركته على مقتضى التكليف الإيماني لـ «افعل» و «لا تفعل»، أما المؤمن الملتزم فقد استطاع أنْ يضبط نفسه، وساعة يرى غير الملتزم إنساناً آخر ملتزماً، فإنه يحتقر نفسه، ويقول بينه وبين نفسه حَسَداً للمؤمن: لماذا؟ وكيف استطاع هذا الملتزمُ أنْ يقدر على نفسه؟

ويحاول المنحرف أنْ يأخذ الملتزم إلى جانب الانحراف، وعندما لا يستطيع جَذْب الملتزم إلى الانحراف فهو يسخر منه ويهزأ به، ويحاول أنْ يحتالَ عليه ليأخذه إلى جانب الانحراف.

وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنساناً مؤمناً ذا استقامة، فيسخرون منه بكلمات كالتي نسمعها «خذنا على جناحك»، أو يحاولون النَّيل من إيمانه، وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم، فهم يروون بتندُّر كيف سخروا من المؤمنين، وكأنهم يحققون السعادة لهؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن.

ولذلك يجب على المستقيمين أنْ ينتبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن يتركوهم في طاعتهم، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم؛ لأنه يعزُّ عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم، ويحزّ في نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام.

لذلك يقولون: هيا نكون كلنا معاً في المعصية، حتى لا يرفع أحدٌ رأسَهُ على الآخر، فلنكُنْ كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يُذلنا، والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربةً تنغرز في قلبه، والخائن ساعةَ يرى الأمين تكون الرؤية حَرْبةً تنزل في قلبه، فيريد أن يكون الكل مثله.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣١]، أي: مسرورين فرحين

وهذا دليل على لُؤمهم ورذالة طباعهم، فلم يكتفوا بالاستهزاء، وإنما يحكونه ويتبجَّحون به.

فليت الأمر توقَّف عند حَدِّ السخرية، إنما تعداه إلى أنْ يضحكوا من أهل الإيمان، ويُضْحِكوا أهلهم، وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة في كل زمان، وحتى الآن نرى مَنْ يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندَّرون بهم.

فعندها يعرف المؤمن أن الضحكة التي ضحكها الكافر القوي من المؤمن الضعيف، أو غَمْزَه، أو لَمْزه، أو عندما استهزأ به، وسخر منه، وتهكَّم عليه، كانت له سَلْوى ومعيناً له على الصبر، وتحمُّل ما يلاقيه من إيذاء؛ لأن اللَّه الذي سيجازيه يرى ما يحدث له ويَعده ويُحصيه.

فالحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه الصورة في الضحك بهم والغمز حين المرور، ولقاء الأهل في سرور مما صنعوا بالمؤمنين، يقول للمؤمنين تعزيةً لهم وتثبيتاً لقلوبهم:

إن كل هذه الأمور على مَرْأىً ومَسْمع مني، ومعنى ذلك أنه لا يضيع عنده شيءٌ.

فالمؤمن عندما يسمع هذا ويعرف أن اللَّه يرى كل شيء من أفعالهم وجرائمهم ويحصيها عليهم، يطمئن على نفسه، ولا يحزن من سخرية هؤلاء المجرمين، بل هو الذي يسخر منهم.

وبعد ذلك يُوضِّح الحق أنه في الآخرة سيجازيهم بمثل ما عملوا، فهم سخروا من المؤمنين، وضحكوا منهم، واستهزأوا بهم، فالحق سبحانه يجازيهم في الآخرة من جنس ما عملوا، فهم استهزأوا وضحكوا ضحكاً وسخروا سخريةً لا دوامَ لها.

فاللَّه سبحانه وتعالى يقلب الأمر في الآخرة، فيجعل المؤمنين يسخرون من الكافرين ويضحكون منهم، كما سخروا منهم في الدنيا، لكن هذا الفرح والضحك سيكون مسألة خالدة؛ لأنهم في نعيم دائم، والكفار في عذاب مقيم.

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤، ٣٥].

أي: أنه في يوم القيامة يفرح المؤمنون بنعيم الجنة الذي جازاهم اللَّه به، ويفرحون بما أصاب الكفار الذين آذوهم وسخروا منهم في الدنيا؛ لأن اللَّه انتقم منهم وأدخلهم النار.

فمَنْ يعمل هذه العملية ويجعلكم تسخرون من الكفار وتضحكون منهم في الآخرة، هل استطاع أنْ يثيب الكفارَ ويُجازيهم عما فعلوه بكم في الدنيا؟

فاليوم يعني يوم القيامة، وهو يوم عظيم، يقوم فيه الناس لربّ العالمين، وهو يوم الحساب والفَصْل والجزاء والأهوال، حينئذ يضحكون منهم كما ضحكوا هم في الدنيا، ولكن مع الفارق، فَضَحِك الكفار مؤقت وسخريتهم زائلة، أما ضَحِك المؤمنين فهو دائم وفرحهم خالد.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥].

ماذا ينظرون؟ ينظرون إلى الكفار وما حَلَّ بهم من عذابٍ، جزاءَ كفرهم واستهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، فقد كان في الدنيا مرورَ ذليل، ومرور مُضطهد، ومرور ممقوت، أما اليوم فقد تغيَّر الحال، فالمؤمنون جالسون على الأرائك يتمتعون بالنعيم الذي هم فيه، وينظرون إلى حال الكفار وما حَلَّ بهم من ذِلَّة وعذاب مهين وسخرية، مثلما كانوا يفعلون بالمؤمنين.

لذلك كان من عباد اللَّه أولئك الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، لأنهم يعلمون أن هؤلاء الجاهلين من الحمقى والسفهاء تغيب عنهم حقائق الدنيا والآخرة، ولا يعلمون من الحياة إلا الأمورَ الظاهرة فقط، فلا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها.

ويصف الحق سبحانه أولي الألباب، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

والصبرهو تحمُّل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتُخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها، وكل ما يُخرج النفسَ الإنسانية عن صياغة الانسجام في النفس يحتاج صبراً.

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن، ويحتاج مصبوراً عليه، والمصبور عليه في الأحداث قد يكون في ذات النفس، كأنْ يصبرَ الإنسان على مشقة التكليف الذي يقول «افعل» و «لا تفعل».

فالتكليف يأمرك بترك ما تحب، وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه، وكل هذا يقتضي مجاهدة من النفس، والصبر الذاتي على مشاق التكليف.

وهذا صبر الذات على الذات، ولكن هناك صبر آخر، صبر منك على شيء يقع من غيرك، ويُخرجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها، وهو ينقسم إلى قسمين: قسم تجد فيه غريماً لك، وقسم لا تجد فيه غريماً لك.

فالمرض الذي يُخرج الإنسان عن حيِّز الاستقامة ويسبب لك الألم ليس لك فيه غريم، لكنك تجد الغريم حين يعتدي عليك إنسانٌ بالضرب مثلاً، ويكون هذا الذي يعتدي عليك هو الغريم لك.

وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله، فالذي يقدر على شيء ليس له فيه غريم يكون صبره معقولاً بعض الشيء، لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره، أما صبر الإنسان على ألم أوقعه به مَنْ يراه أمامه فهذا يحتاج إلى قوة ضبط كبيرة كي لا يهيج الإنسان ويفكر في الانتقام.

ويهمنا هنا الحديث عن الصبر على تسافه الآخرين عليك أو اعتدائهم عليك بسبٍّ أو ضرب أو إيذاء، فوجود الغريم هنا يثير حفيظتك ويهيج غضبك ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته، فالصبر في هذه أصعبُ، وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]، فاستعمل هنا لام التوكيد، لأن الصبر هنا شاقٌّ، والفرصة متاحةٌ للشيطان ليُؤلب القلوب ويثير الضغائن والأحقاد.

ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم، فيقول:

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]،

فهنا ثلاث مراحل: الأولى: كَظم الغيظ. والثانية: العفو. والثالثة: أن تحسن فترتقي إلى مقام مَنْ يحبهم اللَّه وهم المحسنون.

والحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفي النفس ويمنع ثورتها، فيقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ . . .﴾ [الشورى: ٤٠]، لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل، ثم يرقِّي المسألة ويفتح باباً للعفو: ﴿عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فالحق سبحانه وتعالى يُحدثنا عن العفو والإحسان في المصيبة التي لك فيها غريم، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذي قرره لك، فقد أرحتَ نفسك، لكنك تكون قد حرمتها الأجر الذي تكفَّل اللَّه لك به إنْ أنت عفوتَ.

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء، فالذي كان من حقك أن تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحت حياته ملكاً لك، فهل يفكر لك في سوء بعدها؟

لذلك يُعلمنا ربنا: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤].

وأذكر أنني جاءني مَن يقول: واللَّه أنا دفعت بالتي هي أحسن مع خصمي، فلم أجده ولياً حميماً كما قال اللَّه تعالى. فقلتُ له: عليك أن تراجع نفسك، لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتي هي أحسن، لكن الواقع غير ذلك، ولو دفعتَ بالتي هي أحسن لَصدق اللَّه معك، ورأيتَ خصمك ولياً حميماً، إنما أنت تريد أن تجرب مع اللَّه، والتجربة مع اللَّه شكٌّ.

عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ

عن ابن مسعود عن رسول اللَّه ﷺ قال:

(عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ. رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ

فَيَقُولُ اللَّه جَلَّ وَعَلَا: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ، مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي)[١]

هذا حديث رب العزة سبحانه عن حال «عباد الرحمن» مع ربهم، فيقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

فقيام الليل بمثابة الماء للأرض العَطْشى، فهو رِيُّ القلوب الظامئة إلى التحقُّق بحب اللَّه عز وجل، والمثول بين يديه سبحانه، والوقوف على باب رحمته وعَفْوه، عسى أنْ يقبل، عسى أنْ يرضى سبحانه.

فركعتان في جوف الليل، يعبد فيهما اللَّهَ بـ: إخلاص، وحب، ويقين ورغبة في لقائه، وشوق لمناجاته، يجعلان العبد مُحباً للخُلو بحبيبه سبحانه يناديه ويدعوه ويناجيه[٢].

إن قيام الليل دليلٌ على مدى يقين العبد في وعد اللَّه سبحانه ووعيده،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١٤٦)، وابن حبان في صحيحه (٦٤٣ ـ موارد الظمآن) من حديث عبد اللَّه بن مسعود. وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥) لأحمد وأبي يعلى والطبراني في المعجم الكبير، وقال: إسناده حسن.

(٢) أخرج ابن المبارك في الزهد (ص ٤٥٦) (حديث ١٢٨٩) من حديث حسان بن عطية مرسلاً بلاغاً أن رسول اللَّه (قال: «الركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها، ولولا أن أشقّ على أمتي لفرضتهما عليهم»، وعزاه الحافظ العراقي لآدم بن أبي إياس في الثواب، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب «قيام الليل» من رواية حسان بن عطية مرسلاً.

فما الذي يجعل إنساناً ينفض لحافه، ويترك فراشه الدافئ الوثير، ويعزف عن زوجه، ويترك ملذاته وشهواته، ويقاوم النوم، لكي يقفَ يصلي ركعات في ظلمة الليل وبَرْد الشتاء، ما الذي يدعوه للوقوف طويلاً، والركوع طويلاً، والسجود حتى تتورَّم قدماه وتتفطر من كثرة الوقوف وطوله؟

هذا دليل واضح على أن قلبه قد ملأه الإيمان، وأن سراج الإيمان يُضيء في قلبه، وهذا دليل على يقينه وتقواه وصلاحه، يقينه بأن اللَّه حيٌّ سميعٌ بصيرٌ، نام كل الناس، وهجعتْ الأبدان، وغارت النجوم، ووقف «عباد الرحمن» يناجونه.

وانظر إلى ما روتْه أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها عن ليلة أحياها رسول اللَّه ﷺ من لياليه، وكيف أن المحبين للَّه الخاشعين له لهم شأن آخر غير شأن كل الناس.

قالت عائشة رضي اللَّه عنها: «افتقدتُ النبي ﷺ ذات ليلة، فظننتُ أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسستُ ثم رجعتُ، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت. فقلت: بأبي أنت وأمي، إنكَ لَفِي شأن، وإني لفي شأن آخر»[(١)].

ولذلك يعجب اللَّه عز وجل من هذا العبد الذي يترك فراشه وامرأته ونومه ليقوم من الليل، بل إنه سبحانه يفرح به ويستبشر، لذلك يقول النبي ﷺ عن رب العزة سبحانه في الحديث الذي معنا:

«عَجِب ربنا من رجلين: رجل ثار عن وِطَائه[(٢)] ولحافه من بين أهله وحِبِّه إلى صلاته، فيقول اللَّه جل وعلا: انظروا إلى عبدي ثارَ عن فراشه ووِطَائه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته، رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي»

بل إن اللَّه عز وجل يُقَرّر لنا أن قيام الليل وإحياءه هو نتيجةٌ مباشرة للإيمان، وصفة من صفات المؤمنين الصادقين، فيقول عز وجل:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا

(١) أخرجه النسائي في سننه (٢/ ٧٢) كتاب: عشرة النساء من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.
(٢) الوطاء خلاف الغطاء. واللحاف: كل ما تغطيتَ به فقد التحفتَ به.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ ۩ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٥، ١٦].

فعلامة المؤمنين حقّاً باللَّه وآياته، والمذعنين لأمره وحكمه في كل شؤون حياتهم أنهم إذا ذُكِرَتْ أمامهم وعلى أسماعهم آياتُ اللَّه خرُّوا سُجَّداً، تعبيراً عن الخضوع والخشوع الواجبين للمتصف وحده بصفات الكمال.

ولا يتأتى هذا إلا من صاحب قلب امتلأ بحب اللَّه والإيمان والخضوع والذلِّ للَّه وحده، فإذا بهم لا يستكبرون على اللَّه عَزَّ وجل، بل يكونون وكأنَّ على رؤوسهم الطير، ويتعدى هذا إلى تجافي الجنوب والظهور والأبدان كلها عن مضاجعها، وعن هجوعها ورقودها وخلودها إلى النوم، فإذا بهم يسهرون ليلهم ويُطيلون الوقوف بين يدي اللَّه طلباً لما عند اللَّه، وخوفاً من عقابه.

فساعةَ يبيت الواحد منهم في الليل يحاسب نفسه، ماذا قدَّم من عمل في نهاره، ويتذكَّر نِعَم اللَّه التي تجلَّتْ عليه في ذلك اليوم، وهي نِعَم ليست ذاتية فيه، ولكنها موهوبة من ربه، فيشكر اللَّه عليها، ويبيت لربه ساجداً قائماً.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

والقنوت هو المداومة على الشيء، وقد حَثَّ القرآنُ الكريم على ديمومة طاعة اللَّه، ولزوم الخشوع والخضوع.

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

هؤلاء هم المتقون المحسنون، الذين قال الحق سبحانه عنهم:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦].

فأنت إذا زدتَ على ما افترض اللَّهُ من جنس ما فرضه عليك، تكون قد دخلْتَ مع اللَّه في مقام الإحسان؛ لأنك حين جربْتَ أداء الفرائض، وذُقْتَ حلاوتها، وعلمتَ ما أفاضه عليك من معين التقوى، ومن رصيد قوله:

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

إذا استشعرتَ هذا كله علمتَ أن اللَّه يستحقُّ منك أكثر مما كلَّفك به، فالإنسانُ يصلي العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر، هذا هو التكليف، لكن أنْ تحلوَ العبادة للمؤمن، ويزداد الإيمانُ في قلبه، ويملك عليه جوارحه، ويأنس العبدُ بالقرب من اللَّه، فالحقُّ سبحانه لا يردُّ مثل هذا العبد، بل إنه يستقبله ويُدخِله في مقام الإحسان.

والإحسان له وجهان:

الأول: أن يعبدَ المؤمنُ اللَّهَ كأنه يراه، فيُحسِن أداء كل تكليف يُكلَّف به، كأنه يرى اللَّه، فإنْ لم يكُنْ يراه فإنه يحسُّ أنه سبحانه يراه.

الثاني: أنْ يزيد المؤمنُ في أداء هذه التكاليف فوق ما فرض اللَّه، وهي النوافل، وبذلك لا يكتفي المؤمنُ بتصديق الأحكام التي نزلتْ، بل يزيد من جنس ما فرض اللَّهُ عليه.

فالمحسن هو مَنْ عشق تكليف اللَّه، وعرف منزلة القرب منه، فوجد اللَّه قد كلَّفه دون ما يستحق سبحانه منا، فزاد من العمل الذي يزيده قرباً من اللَّه.

والحق يقول في الحديث: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يبصرُ به، ويده التي يبطشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، إنْ سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١).

والحق يأمر نبيه ﷺ، فيقول: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وهذه خصوصية لرسول اللَّه، وزيادة على ما فرض على أمته، أنْ يتهجد للَّه في الليل؛ لأن اللَّه يقول له: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٥٦) من حديث عائشة، وكذا البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة. قال الخطابي: «هذه أمثال، والمعنى توفيق اللَّه لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره اللَّه من الإصغاء إلى اللَّهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى اللَّه عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله» ذكره ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٤٤).

وكأن التهجد ليلاً والوقوفَ بين يدي اللَّه في هذا الوقت سيعطي رسول اللَّه ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسؤولية الملقاة على عاتقه، ألَا وهي مسؤولية حَمْل المنهج وتبليغه للناس.

ويقول الحق: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ[1] ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا . . .﴾ [المزمل: ٦].

ففي الوقت الذي ينام فيه الناس، ويخلدون إلى الراحة، وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة، يقوم «عباد الرحمن» بين يدي ربهم مناجين متضرعين، فتتنزّل عليهم من اللَّه الرحمات والفيوضات، فمَنْ قام من الناس في هذا الوقت، واقتدى برسول اللَّه ﷺ، فله نصيب من هذه الرحمات، وحَظٌّ من هذه الفيوضات، ومَنْ تثاقلت رأسه عن القيام فلا حَظّ له.

إذن: في قيام الليل قوة إيمانية، وطاقة روحية، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظُّه من قيام الليل أزيد من حظهم، فأعباء الرسول كثيرة، والعِبء الثقيل يحتاج الاتصالَ بالحق الأحد القيوم، حتى يستعين بلقاء ربه على قضاء مصالحه.

ومن العجيب أنْ ينصرف المسلمون عن هذه السنة، ويتغافلون عنها، فإذا حَزَبهم أمر لا يُهرعون إلى الصلاة، بل يتعللون، يقول أحدهم: أنا مشغول وهل شغل الدنيا مبرر للتهاون في هذه الفريضة؟ ومَنْ يدريك لعلك بالصلاة تُفتَح لك الأبواب، وتقْضِي في ساعة مَا لا تقضيه في عدة أيام.

ونقول لهؤلاء الذين يتهاونون في الصلاة وتشغلهم الدنيا عنها، فإنْ صَلَّوْا صلوا قضاءً، فإنْ سألتهم قالوا: المشاغل كثيرة، والوقت لا يكفي، فهل إذا أراد أحدهم الذهابَ لقضاء حاجته، هل سيجد وقتاً لهذا؟ إنه لا شكَّ واجدٌ الوقت لمثل هذا الأمر، حتى وإنْ تكالبتْ عليه مشاغل الدنيا، فلماذا الصلاة هي التي لا تجد لها وقتاً.

أما التهجُّد، وهو قيام الليل، فهو فَرْض على رسول اللَّه ﷺ دون غيره، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوُّع.

---

(١) ناشئة الليل: ساعاته. قال الزجاج: ناشئة الليل ساعات الليل كلها، ما نشأ منه ـ أي: ما حدث ـ فهو ناشئة. قال أبو منصور: ناشئة الليل قيام الليل. [لسان العرب مادة. نشأ].

فهؤلاء الذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً، يتوجهون لربهم وحده، ويقومون له وحده، ويسجدون له وحده، هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ بما هو أَرْوَح منه وأمتَعُ، مشغولون بالتوجُّه إلى ربهم، ينام الناس، وهم قائمون ساجدون، ويخلد الناس إلى الأرض، وهم يتطلعون إلى عرش الرحمن، ذي الجلال والإكرام.

يقول الحق سبحانه: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران].

ويقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

والتسبيح هو: التنزيه للَّه تعالى، وهو صفة للَّه قبل أن يخلقَ من يسبحه وينزهه، فالتسبيح ثابت للَّه، ولو لم يُوجد المُنَـزّه، فلما خلق اللَّه الكونَ سَبّحت السماواتُ والأرضُ وما فيهنّ للَّه، فإذا كان التسبيح ثابتاً للَّه قبل أن يوجد المسبّح، ثم سبح للَّه أول خَلْقه، ولا يزالون يُسبّحون، فأنت أيضاً سبِّح باسم ربك. أي: نزِّهه سبحانه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً عما تراه من المخلوقات.

والتسبيح والتنزيه يعني أن المقياس الذي يضبط العالم ليس كمقياس العالم إنما أصلحُ وأقوى، وهذا في صالحك أنت، فساعةَ أن تسبح اللَّه اذكر أن التسبيح نعمة، فاحمد اللَّهَ على أنه لا شيءَ مثله، سبِّح تسبيحاً مصحوباً بحمد ربك؛ لأن تنزيهه إنما يعود بالخير على من خلق، وهذه نعمة تستحق أن تحمد اللَّهَ عليها.

ومثال ذلك ـ وللَّه المثل الأعلى ـ رب الأسرة، فهذا الرجل الكبير العاقل صاحب كلمة الحق والعدل بين أفرادها، وصاحب المهابة بينهم تراهم جميعاً يحمدون اللَّه على وجوده بينهم؛ لأنه يحفظ توازن الأسرة، وينظم العلاقات بين أفرادها، ألم نَقُل في الأمثال: اللي ملوش كبير يشتري له كبير؟

حتى وإن كان هذا الكبير متعالياً؛ لأن تعاليه لصالح أفراد أسرته، حيث سيلزم كل واحد منهم حدوده، لذلك كان من أسماء اللَّه تعالى: المتعال المتكبر، وهذه الصفة وإن كانت ممقوتة بين البشر لأنها بلا رصيد، فهي

محبوبة للَّه تعالى؛ لأنها تجعل الجميع دونه سبحانه عبداً له، فتكبُّره سبحانه وتعاليه بحق.

إذن: لا يحفظ التوازن في الكون إلا قوةٌ مغايرة للخلق.

والحق سبحانه يريد تسبيحنا تسبيحاً دائماً متوالياً، كما أن نِعَمَ اللَّه عليك متوالية لا تنتهي، فكل حركة من حركاتك نعمة، النوم نعمة، والاستيقاظ نعمة، والأكل نعمة، والشرب نعمة، والبصر، والسمع، كل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد، وكل نعمة من هذه ينطوي تحتها نِعَم.

لذلك؛ فالحق سبحانه يعطينا زمن التسبيح، فيعيشه في كل وقت: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وآناء: جمع إنْي، وهو الجزء من الزمن، وهذا الجزء يترقى حسب تنبهك لتسبيح التحميد، فمعنى التسبيح آناء الليل أي أجزاء الليل كله، فهل يعني هذا أن يظل الإنسان لا عمل له إلا التسبيح؟ فيمكن أن تجزئ الليل إلى ساعات، فتسبح كل ثانية، وهكذا حسب مقامات المسبح وأحواله.

فهناك من عباد اللَّه من لا يفتر عن تسبيحه لحظة واحدة، فتراه يسبح اللَّه في كل حركة من حركاته؛ لأنه يعلم أنه لا يؤديها بذاته، بدليل أنها قد تُسْلَب منه في أي وقت.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ . . .﴾ [طه: ١٣٠]، ليستوعب الزمن كله ليله ونهاره، والمقامات والأحوال كلها؛ لذلك يقول بعض العارفين في نصائحه التي تضمن سلامة حركة الحياة:

(اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك)، فهذا الذي يستحق المراقبة، وعلى المرء أن يتنبه لهذه المسألة، فلا تكن مراقبته لمن يغفل عنه، أو ينصرف، أو ينام عنه.

(واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك) فإذا شربت كوب ماء، فقل: الحمد للَّه أن أرواك، فساعة تشعر بنشاطها في نفسك قل: الحمد للَّه. وساعة أن تخرجها عرقاً أو بولاً قل: الحمد للَّه، وهكذا تكون موالاة حمد اللَّه، والمداومة على شكره.

(واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه) فطالما أنك لا تستغني عنه، فهو الأولى بطاعتك.

(واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه) وإلَّا، فأين يمكنك أن تذهب؟

لكن، لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل، فقال: ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ...﴾ [طه: ١٣٠]. وحدده في النهار، فقال: ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ..﴾ [طه: ١٣٠]؟

قالوا: لأن النهار عادة يكون محلاً للعمل والسعي، فربما شغلك التسبيح عن عملك، وربنا يأمرنا أن نضرب في الأرض ونسهم في حركة الحياة، والعمل يعين على التسبيح ويعين على الطاعة ويعينك أن تلبس: اللَّه أكبر.

ألا تقرأ قول اللَّه عز وجل في سورة الجمعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠].

ذلك لأن حركة الحياة هي التي تعينك على أداء فرض ربك عليك، فأنت مثلاً تحتاج في الصلاة إلى ستر العورة، فانظر إلى هذا الثوب الذي تستر به عورتك؛ كم يدٌ ساهمت فيه؟ وكم حركة من حركات الحياة تضافرت في إخراجه على هذه الصورة؟

أما في الليل فأنت مستريح، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح اللَّه في أي وقت من أوقاته.

ويلفتنا قوله تعالى: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

فأيُّ طلوع؟ وأيُّ غروب؟ وأيُّ ليل؟ وأيُّ نهار؟ أهي لمصر، أم للجزائر، أم للهند، أم لليابان؟ إنها ظواهر متعددة وممتدة بامتداد الزمان والمكان لا تنتهي فالشمس في كل أوقاتها طالعة غاربة، ففي هذا إشارة إلى أن ذكر اللَّه وتسبيح اللَّه دائم لا ينقطع.

ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح، فيقول: ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]،

ونلحظ أن الحق سبحانه يحث على العمل بالنفعية، فلم يقل: لعلِّي أرضى، قال: لعلك أنت ترضى، فكأن المسألة عائدة عليك ولمصلحتك.

والرضا: أن تصلي فيما تحب إلى ماتؤمل، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد، وحقق ما يرجو، كما تقول لصاحبك: أأنت سعيد الآن؟

يقول: يعني، يقصد أنه لم يصل بعد إلى حَدِّ الرضا، فإن تحقق له ما يريد يقول لك: سعيد والحمد للَّه. فإنْ أحسنت إليه إحساناً يفوقُ ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان، ويقول: ربنا يُطيل عمرك، جزاك اللَّه خيراً.

إذن: رضا الإنسان له مراحل؛ لذلك الحق سبحانه يقول في الحديث القدسي كما روى النبي ﷺ: «إن اللَّه يتجلى على خَلقه في الجنة: يا عبادي هل رضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من العالمين، قال: أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وهل يوجد أفضل من ذلك؟ قال: نعم أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط بعده عليكم أبداً».

وهكذا يكون الرضا في أعلى مستوياته، الغاية من التسبيح إذن الذي كلفك ربك به أن ترضى أنت، وأن يعود عليك بالنفع، وإلا فالحقُّ سبحانه مُسبَّح قبل أن يخلق، أنت مسبح قبل أن يخلق الكون كله، ولا يزيد تسبيحك في ملكه تعالى شيئاً، ويتم لك هذا الرضا حين ترضي اللَّه فيرضيك.

لذلك حكم الحق سبحانه بأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فقال تعالى عن القانتين آناء الليل وساعاته ساجدين وقائمين، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

فالذي هو قانتٌ آناءَ الليل يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه علم العلم الحقيقي، فالقنوت بالليل فيه مسائل كثيرة. أولاً: أنه أبعدُ عن الرياء والسمعة. ثانياً: أن كل جوارحه تفرغتْ للقاء ربه.

فالعين مثلاً في ظلمة الليل تستريح من المرائي التي تشغل الإنسان وتأخذ انتباهه، لأن كل مرأىً يأخذ جزءاً من خواطرك، فهذا ذهب، وهذا جاء، وهذا قال.

أما الليل فسكونٌ لا انشغالَ فيه، فالجوارح خالصةٌ لوجه اللَّه لا تشغلها المرائي والأصوات، وهذا الجو يوفر لك وقفة حقيقية وخاشعة بين يدي اللَّه وفي القنوت تترك النوم وتحرم نفسك راحتها، لتقوم بين يدي ربك ساجداً أو قائماً.

وبالقنوت يدخل العبد في الربانية التي تقول للشيء كن فيكون، وهذه من الفيوضات لمَنْ كان للَّه ساجداً أو قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، يعبده بلا رياء أو سمعة، ويمنع نفسه النوم والراحة، لأنه أنس بربه واستراح في قُرْبه.

ويُحدثنا الحق سبحانه عن محمد ﷺ وصَحبه، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد سُئل عمر رضي اللَّه عنه عن المتقين، فقال: «الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من اللَّه». وكأنه يشرح لنا قوله تعالى عن أصحاب رسول اللَّه: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

فساعة ترى المتقي للَّه تُسَرُّ وتفرح به، ولا تعرف مصدر هذا السرور، إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى اللَّه، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده، لأن رؤياه تُذكرك بالخشوع والخضوع والسكينة ورقَّة السَّمْت وانبساط السريرة.

فساعة تراهم ترى أن الملامح توضح ما في الأعماق من إيمان، أولئك الذين ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، فعند سماعهم آيات الرحمن لا يسجدون فقط بل يخرون سُجداً، أي: يسقطون بوجوههم سريعاً إلى الأرض، وهذا انفعال قَسْري طبيعي لا دَخْلَ للعقل فيه ولا للتفكير.

فالساجد يستطيع أن يسجد بهدوء ونظام، أما الذي يخر فلا يفكر في ذلك بل يخر تلقائياً ويضيف إليه نزوعاً داخلياً، فتفيض أعينهم بالبكاء دموعاً.

فالقرآن يؤثر في حواسِّ الإنسان وأعضائه، خاصة في جوف الليل، حينها ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالذي خلق التكوين الإنساني هو الذي يتكلم، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تعي عنه وتفهم فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط، بل يخاطب كل ذرة من ذرات تكوينك، لذلك تخر الأعضاء ساجدة، وتدمع العيون، وتقشعر الجلود، وتلين القلوب، كيف لا والمتكلم هو اللَّه؟

وهذه صفة العبد الذي يخشى ربه ويراقبه ويعمل لنظره إليه حساباً، لأنه دائماً يعرض سلوكه على ربه، فإنْ رأى فيه مخالفة عاد إلى كلام اللَّه وتذكَّر وعيده فتحدث عنده قشعريرة في جلده من خشية ربه، وهي أنْ يجفَّ جلده وتحدث رعشة في البدن من خوف العذاب، ومن خوف غضب اللَّه، ثم يعود فيتذكر رحمة ربه التي سبقتْ غضبه، وعفوه الذي سبق عقوبته، فيعود إلى حالته الأولى.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فالجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار، ومن مجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها.. وبعد ذلك تأتي الرحمة، وفي هذه الحالة لا تلين الجلود فقط، ولكن لا بدَّ أن تلينَ القلوبُ لأنها هي التي تعطي اللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد.

ورسول اللَّه ﷺ يقول: «إن في الجسد مُضغة إذا صلحتْ صَلُحَ الجسد كله، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

فالقلب هو منبع اليقين ومصبّ الإيمان، وهو موضع الرقة والرحمة والعطف، وإذا ما جعلنا القلب أكثر ذكراً للَّه فإنه يمتلئ رحمةً وعطفاً، وإذا كان غامراً باليقين والإيمان، فكلُّ جارحة في الإنسان تكون فيها خميرةُ إيمان.

أما إذا خرج الإيمان من القلب خرجت منه الرحمة، وخرج منه كل إيمان الجوارح.. فلمحة الإيمان التي في اليد تخرج فتمتد اليد إلى السرقة والحرام.. ولمحة الإيمان التي في العين تخرج فتنظر العين إلى كلِّ ما حرَّم اللَّه.. ولمحة الإيمان التي في القدم تخرج فلا تمشي القدم إلى المسجد أبداً، ولكنها تمشي إلى الخمارة وإلى السرقة، لأنه كما قلنا: القلب مخزن الإيمان في الجسم.

ومدخلنا لإصلاح هذا القلب هو التوجه إلى اللَّه بالتضرع والخشوع، وأن نكون حقاً من تلك الأمة التي ذكرها الحق سبحانه في قرآنه، فقال:

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣].

فالصلاة عنوان الخضوع، والسجود أقوى سمات الخضوع في الصلاة، وما داموا يُصلُّون فلا بُدَّ أنهم يتلون آيات اللَّه آناءَ الليل وساعاته وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل، ونعرف أن من حُسْن العبادة في الإسلام ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلاً وصلاة التهجد، وهذه من مدارج العملية الإيمانية التي يدخل بها العبدُ إلى مقام الإحسان.

ودخوله لمقام الإحسان يجعله يزيد عما افترضه اللَّه عليه، فهو لا يصلي فقط صلاة العتمة وهي العشاء لكنه يكرر الصلاة ويقطع ساعات الليل في عبادة يجد حلاوتها في قلبه، فينير ليله بالقرب من اللَّه.